الحرب... ورمضان

عبّاس سليمان*

حين أوقفتُ سيارتي أمام منزلي وطرقتُ الباب، كان أذانُ المغرب يرتفع عبر صوامع المدينة، والمصلّون قد أخذوا يملأون الطرق والأزقة المؤدّية إلى المساجد القريبة منهم. وكانت المتاجر قد بدأتْ تقفل أبوابها، وفوانيسُ الإنارة العمومية تحلّ محلّ الشمس التي توارت.

كان المفروض أن تمتدّ مشاركتي في الندوة الفكرية التي نُظِّمتْ بعنوان «نحن والعولمة» إلى نهاية الأسبوع، ولكنّ خصومات عنيفة ومشادّات كلامية وبدنية نشبتْ بين المشاركين اضطرّت المنظّمين إلى التعجيل بتلاوة البيان الختامي وإنهاء اللقاء.

هبّ مَنْ في الدار لاستقبالي والترحيب بي ولسؤالي عن صحّتي وسبب عودتي قبل الأوان. ثم تحلّقنا حول العشاء وأخذنا أمكنتنا أمام التلفزة.

الغرفة غارقة في الدفء، والشاشة الصغيرة تَعْرض مسرحيةً هزليةً قالت زوجتي إنّنا شاهدناها مرارًا، ولكنّي أصررتُ على متابعتها، وساندني في اختياري عليّ ورمضان وفطيمة. كأس الشاي الذي افتقدتُه ثلاثة أيام بلياليها ينتقل في دلالٍ بين أصابعي وشفتيّ، وجلجلةُ الضحك تغطّي على عواء الرِّيح، عندما رنّ الجرسُ وسُمِعَ طرقٌ عنيفٌ على الباب.

أخذ الأطفال يتبادلون النّظرات، وفهمتُ أنّ أحدًا منهم لا يرغب في القيام. فنهضتُ متثاقلاً واتّجهتُ خارج الغرفة.

لم يدر بخلدي أن أسأل نفسي عن هذا القادم في هذا الوقت، ولا عن سبب إلحاحه في دقّ الجرس وطرقِ الباب. كنت أريد فقط أن أفتح.. ثمّ أعود لأتابع بقية مشاهد المسرحية.

ـ أنتَ «طَرِيف» الصحفي؟

ـ نعم.

ـ تعمل بالجريدة التي تسمّي نفسها **الحقّ**؟

ـ أعمل بالجريدة التي تسمّي نفسها **الحقّ**!

ـ سننتظرك قليلاً ريثما تغيِّر ثيابَك قبل أن ترافقنا.

ـ إلى أين؟

ـ لا يهمّ. المهمّ أن ترافقنا.

كانا شرطيّيْن في زيِّهما الرسمي، يرافقهما ثالث يبدو أنّه أعلى منهما مرتبةً. ولم تكن ملامح الثلاثة توحي بشيء.

تركتْ زوجتي والأطفالُ التلفزةَ، وهرعوا نحوي، فصددتُهم بحركةٍ من يدي وسبقتُهم إلى غرفة النوم لاستبدال ملابسي.

قالت زوجتي:

ـ ماذا يريد هؤلاء؟

ـ يريدون أنْ أذهب معهم، ولا أدري لماذا.

ـ لعلّكَ ارتكبتَ مخالفةً مرورية؟

قلتُ منشرحًا:

ـ ربّما...

قال رمضان:

ـ لعلّهم يستدعونك لأخذ أقوالك بخصوص الندوة التي كنتَ تَحْضرها.

وقال كلّ من عليّ وفطيمة كلامًا لم أُعِرْه اهتمامًا، ولكنّي كنتُ أردِّد كالببغاء:

---

* ـ كاتب من تونس.

ـ ربما.. ربما..

إلى أن انتهيتُ من ارتداء ملابسي. ودون أن أنظر إلى أيّ منهم، توجّهتُ نحو أعوان الشرطة المرابطين بالباب.

في الطريق، رحتُ أستعيد ما قالته زوجتي وما قاله رمضان وعليّ وفطيمة، ثم انتهيتُ إلى استبعاده جميعًا. لا يمكن أن يأتي إلى منزلي ليلاً ثلاثةٌ من الشرطة في سيارة ويقتادوني حيث يَدْرون ولا أدري، لمجرّد أنّي ارتكبتُ مخالفةً مروريةً، أو لاستجوابي عما حصل في الندوة التي لم تكتملْ، ولا لأنّ شخصًا اشتكاني إلى العدالة لسببٍ ما، ولا حتى لمجرد أنّ في الأمر التباسًا وأنّهم يقصدون غيري.

مرارًا عنّ لي أن أسأل أحدَ الثلاثة عن سبب استدعائي، ولكنّي أقنعتُ نفسي بأنّ هؤلاء الثلاثة إمّا أنّهم أُمِروا بإحضاري دون أن يُزَوَّدوا بأية معلومة، أو أنّهم يَعْرفون السبب وسيمتنعون إنْ أنا سألتُهم عن أيّ توضيح.

أَوصَلنا المصعدُ الكهربائي إلى الطابق السابع وبدأنا نمرّ على المكاتب الفارغة واحدًا واحدًا، وهالني أن اختطفتْ عيناي في أحدها رئيسَ تحرير جريدتنا يَضْحك ملءَ شدقيه، فيما رجل أنيق يَنْظر إليه من وراء مكتبه مبهوتًا. وبدأتُ أفهم أنّ الأمر خطير: أنا ورئيس التحرير في غرف التحقيق ليلاً! ولكنْ ماذا يُضحك رئيسَ التحرير؟ ولماذا دُعينا كلاً على حدة؟

ـ إجلسْ، قال رجل أنيق آخر.

جلستُ قبالته. ولم أستأذنه في أن أدخّن. أشعلتُ سيجارةً، وطفقتُ أَنفُث الدخان، وعيناي إلى السقف. تظاهرتُ بأنّني لستُ قلقًا، ولا مستعجلاً لمعرفة سبب استدعائي، ولا غاضبًا لأنّهم جلبوني ليلاً بدون سابق إنذار ولا جرمٍ ارتكبته.

جاء رجل أنيق آخر وجلس إلى جانب الأول، ثم رفع الاثنان بصرَهما إليّ معًا. قال الأول:

ـ أنت إذن طريف؟

ـ نعم أنا طريف.

ـ أنت صحفي في الجريدة التي تسمّي نفسها **الحقّ**؟

ـ نعم أنا صحفي في الجريدة التي ذكرتَ.

ورأيتُ فوق مكتبه أعدادًا من الجريدة.

ـ يا سيّد طريف، الموضوع لا يحتاج إلى مقدّمات ولا يستدعي أن نَهْدر فيه الوقت. أنت صحفي شهير وتعرف قبل غيرك أنّ الوقت من ذهب.

ـ ليست لديّ فكرةٌ عن هذا الموضوع الذي لا يحتاج إلى مقدّمات.

ـ أنت أمام تهمتيْن واضحتيْن لا لبس فيهما. أما الأولى (وأصبحتْ لهجتُه أكثرَ حدةً وأكثر صرامةً) فقد كتبتَ في العدد الأخير من جريدتكم مقالاً عنوانه: «لهذه الأسباب أكره...»

شعرتُ لأول مرّة، منذ أن فتحتُ البابَ ورأيتُ أعوان الشرطة، بدَفْقٍ من الارتياح يغمرني. ولاحظ الجماعة أنّي أبتسم، فسألاني بصوت واحد:

ـ أتُنْكر أنّك كتبتَ هذا؟

ووضع كلٌّ منهما سبّابته على عنوان المقال.

ـ ولماذا أُنكر؟

ـ أنت معترفٌ إذن؟

ـ أنا معترف تمامًا.

ـ ألا تُدْرك خطورةَ ما كتبتَ؟

ـ أية خطورة؟ لو قرأتم المقالَ لتنبّهتم إلى أنّ النقطة فوق الحرف الرابع من الكلمة الأخيرة زائدة... مجرّد خطإ مطبعيّ لا أحدَ تعمّدَه ولا دخل لي فيه. أنا عبّرتُ عن أسباب كرهي **للحرب**... لا غير.

تبادل الرّجلان نظراتٍ زائغةً، ثم فتح ثانيهما ملفًا أمامه وسألني بلهجة الواثق من نفسه وممّا يقول:

ـ دعنا من الحرب؛ نحن أيضًا نكرهها. ولكنْ ماذا ستقول في تهمتك الثانية؟

ـ أَسمعُها أولاً!

ـ كتبتَ في العدد الأخير من جريدتكم التي تسمُّونها **الحقّ** مقالاً آخر بعنوان «أعوذ باللّه من رمضان.»

لم أستطعْ أن أمنع نفسي من الضحك، ولم أستأذن أيًا منهما في استعمال الهاتف. بسرعةٍ كوّنتُ رقمَ منزلي، وطمأنتُ زوجتي إلى أنّنيَ عائدٌ بعدَ لحظات، ثم عدتُ إلى الضحك قبل أن أقول:

ـ نعم، كتبتُ هذا.

ـ أنتَ معترفٌ إذن؟

ـ معترف تمامًا. رمضان، يا جماعة، أتعبني وأرّقني وأَحرق أعصابي وأَفْسد مزاجي وفَتَكَ بجيوبي. لماذا لا أَستعيذ منه ومن شرّه باللّه؟

ـ ألم تنتبهَ إلى أنّك تستعيذ من شهر مقدّس؟

غلبنيْ الضحك. ظللتُ أضحك إلى أن استشاط الجماعةُ غضبًا ولم يهدأوا إلاّ عندما قلت:

ـ يَا جماعة، لَو قرأتم المقالَ جيّدًا لتأكّدتم أنّني لم أتحدّث إطلاقًا عن الشهر المقدّس. أنا أتحدّث عن رمضان ابني. ألا تعرفون أنّ لي ابنًا اسمُه رمضانْ؟!

تونس

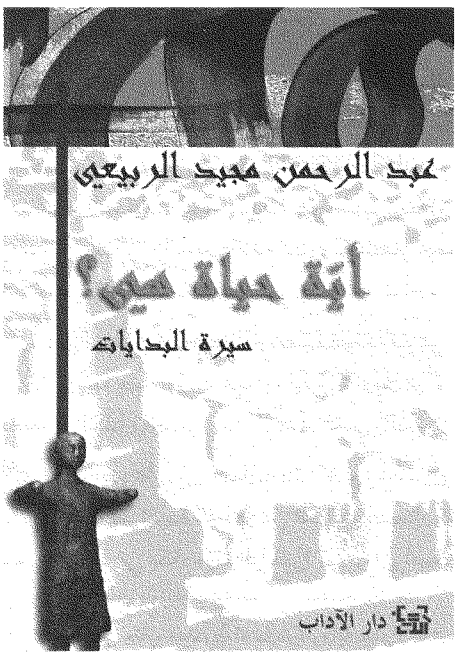

هذه «السّيرة الأدبيّة» تُعتبر وثيقة اجتماعية تحمل فائدة هامة بشهادتها على فترة من حياة الشعب العراقي وأدبائه وفنانيه ونماذج بشريّة من أبطاله غنيّة الإيحاء، عبر حياة أحد الأدباء العراقيين الجادِّين، عبد الرحمن مجيد الربيعي، بلغة مشوّقة بعيدة عن التكلّف، مشبعة بجرعة كبيرة من الصدق والصراحة والجرأة.